لقاء بعد حين

في صيف عام ١٩٢٤خرج عبدالله المهرجي من مكة المكرمة باتجاه فلسطين ليتعلم التجارة مع أبيه وأهل ديرته، كانت الأحوال صعبة، والحياة شاقة، فلابد من خروج عبد الله للعمل والكد كي يساعد أباه وأمه وإخوته الصغار.

صحيح أن عبد الله لم يتجاوز البلوغ بعد؛ فوالده يقول: إن سنه تجاوز الحادية عشرة، بينما تقول أم عبد الله: إنه في موسم الحج القادم يكون قد بلغ العاشرة من عمره، فلذلك كانت غير راضية عن خروجه، وتقول: إنه صغير، ولم يحن وقت خروجه للكد والنصب؛ ولكن الوالد أقنعها بقوله: إن الرسول ﷺ تدرب على التجارة في مثل سنه، عندما خرج مع عمه في رحلة تجارية للشام.

أوصت أم عبد الله ابنها أن يكون حذرا في الطريق، فالبلاد

خليل محمود الصمادي- فلسطين

تمر بصراعات بين الأشراف والملك الجديد الذي وقفت جيوشه على الحدود الشرقية من مكة المكرمة بانتظار الاقتحام.

سار عبد الله مع القافلة باتجاه القُريات حيث ستبيع هناك بعض التوابل التي اشترتها من الحجاج الهنود من مكة. وبالفعل باع الرجال ما تبقى من توابلهم بالقريات، ومن هناك حملوا أكياس الملح على ظهر الجمال التي ستتجه صباح الغد إلى شرق الأردن وفلسطين.

بعد عناء السفر ومشقته وصلت القافلة إلى القدس الشريف، وحطت في أسواقها، وبالذات في سوق الجمعة، وبدأ تجار الجملة يتفحصون ملح القريات الصخري، فمنهم من اشترى، ومنهم من عاين، ومنهم من أوصى القافلة بأنواع معينة للرحلة القادمة.

باع التجار ما حملته إبلهم قبل صلاة الجمعة، وبعدها توجهوا إلى المسجد الأقصى لأداء الصلاة.. وأي صلاة في مسجد تشد إليه الرحال!!

لم ينبهر أحد من القافلة بالمسجد الأقصى ومسجد الصخرة كانبهار عبد الله، فهم قد اعتادوا على رؤيته مرة أو مرتين في السنة، ولكنّ الفتى المكي سرعان ما أسمع من حوله عبارات: ما شاء الله! تبارك الله!.

انقضت صلاة الجمعة، وخرج الجميع من المسجد إلا عبد الله

فأحب أن يمتع عينيه بمناظر قد لا يراها ثانية، وبعد طول انتظار خرج من المسجد ليجد أباه ومن معهم من القافلة يصرخون: طوّلت ياولد!.

لم يدر عبد الله أن القافلة تتجه جنوبا باتجاه مدينة خليل الرحمن، ولكنه علم أنه سيصل غدا إلى سوق كبير، يجتمع به خلق عظيم، كما قال له أبوه. وبعد عدة أميال ناخت الإبل قرب بئر قديمة حولها آثار الغادين والرائحين، وبقايا أغصان أشجار محروقة بين أحجار غشاها السواد، فلولا ضوء القمر لما تبين الحجر الأسود من غسق الليل، وبعد البحث عن مكان مناسب، بركت الإبل حول البئر، وأخلد الرجال وعبد الله للنوم تحت ضوء القمر.

صحا عبد الله مبكرا قبل بزوغ الفجر، حدثته نفسه أن يذهب إلى المسجد الأقصى لصلاة الفجر وحده، ثم يعود قبل أن يشعر به أحد، فالرجال من التعب يغطون في نوم عميق. أعجبته الفكرة ولاسيما أنهم ما زالوا على بعد رمية حجر من القدس، وربما لا تتكرر الزيارة مرة أخرى!!

قبل شروق الشمس بقليل صحا الرجال متثاقلين كل يريد أن يلحق صلاة الفجر قبل الشروق، وبعد أداء الصلاة تفقد الوالد ابنه فظنه ما زال يقضي حاجته، انتظر قليلا ثم نادى بأعلى صوته: يا عبد الله!. لم يجب عبد الله؛ لأنه في الوقت نفسه كان يبكي ويقول: يا أبي.. أين أنت؟

بعد أن أدى الغلام صلاة الفجر، بدأ الصبح يتنفس، وعبق الياسمين يختلط مع هواء المدينة العليل، فلولا خوف عبد الله من أبيه ولومه القاسي لمكث هنا وقتا طويلا، لذا جد خطاه باتجاه مكان القافلة، وبعد أن أوشك البنيان على الاختفاء التفت خلفه ليمتع عينيه بالأقصى والقدس، وتابع مسيره حتى غاب عنه كل شيء.

احتار الغلام في أمره، فقد طالت المسافة، وقف هنيهة ينظر وراءه، وعن يمينه، وعن شماله، وتلفت مراراً، وصار يحدث نفسه: أيعقل أنني تهت عن الطريق؟ لا.. لا، هذا هو الطريق، ولكن يبدو أن القافلة غادرت المكان ظنا منهم أنني معهم، ولا بدّ من اللحاق بالركب!!

ظل عبد الله يسير، حتى انتصفت الشمس في كبد السماء، عندها وجد شجرة على قارعة الطريق فاستظل بفيئها، وراح يغط في نوم عميق، ولما صحا تابع مسيره علّه يرى المكان الذي تركه بالأمس ولكنه خاب!.

آه يا عبد الله!.. لقد تهت، وتاهت القافلة من بعدك، أنت تسير بالاتجاه الخاطئ، بل بالاتجاه المعاكس، لقد اتخذت طريق الشمال، وصحبك ساروا باتجاه الجنوب.

ضاع الغلام، وغابت شمس ذاك النهار، وعبد الله لا يدري ماذا يفعل، لقد تيقن أنه يمشي على غير هدى ولما حل الظلام أخذه التعب فنام على قارعة

الطريق. وفي الصباح تابع سيره حتى وصل إلى مدينة عامرة فسأل عنها، فقيل له: إنها طبرية.

مكث عبد الله في طبرية عدة أيام، فلم يطب له المقام فيها، فلا فرصة عمل هناك، ولا مال معه كي ينام في الخان ويقتات منه. لكنه سرعان ما تعرف على فلاح اتفق معه أن يرافقه إلى قرية «لوبية» كي يعمل عنده مقابل طعامه وشرابه ومبيته.

وهناك جد عبد الله واجتهد وعمل، وألِفَ سكان القرية وألفوه، وأحبوه وأحبهم، وتنقل من فلاح لآخر حتى وفر بعض المال، وبنى بيتا صغيرا وتزوج وأنجب، ولكنه لم ينس مكة وبيت الله الحرام، لم ينس أهله، ولا شوارع مكة وأسواقها!. وكم حدثته نفسه لأداء فريضة الحج ولكن أنّى له ذلك، فلا جواز سفر عنده، ولا أي إثبات لشخصيته، ولا مال يغامر به في رحلة شاقة ومضنية.

في عام (١٩٤٨م) هاجر عبد الله «أبو نمر» وزوجته وثلاثة من أولاده إلى دمشق، وسجل اسمه مع قوائم اللاجئين، وتنقل من مسجد لآخر حتى حط به الرحال في مخيم اليرموك، وهناك افتتح محلا للحدادة في دكان متواضع مع أولاده الذين غدوا شبابا.

ومرت سنوات أخرى، وذات ظهيرة من عام (١٩٥٩م) كان يستمع لإذاعة مكة، حيث كان يطرب لسماع القرآن الكريم، وللبرامج الدينية وغيرها، وفجأة سمع صوت المذيع يقول: وصلتني رسالة من أم عبد الله تبحث عن ولدها عبد الله الذي خرج إلى القدس منذ ثلاثين عاما، ولم يعد. أرجو ممن يعلم عنه شيئا أن يخبرنا على عنوان البرنامج!.

لم يصدق عبد الله (أبو نمر) ما سمعه من المذياع، واجتمع مع أولاده وزوجته لتداول الأمر، واتفق الجميع على أن يذهب أبو نمر وزوجته لأداء فريضة الحج هذا العام، والبحث عن بيت أم عبد الله المهرجي هناك.

وبالفعل توجه أبو نمر وزوجته إلى الحج، وكانا يطوفان في شوارع مكة بعد طواف القدوم للسؤال عن بيت المهرجي، فدله الناس إلى عدة بيوت لآل المهرجي، فإذا كان أهل مكة أدرى بشعابها فلا شك أنهم أدرى بأسرها أيضاً!.

قال أحدهم: هناك بيت أبي خالد المهرجي، وهذا بيت أبي سالم المهرجي، أما ذاك فبيت أم عبد الله الذي ضاع ابنها بفلسطين!! وما كاد أبو نمر لم يسمع الجملة الأخيرة حتى تسارعت نبضات قلبه، وأخذته قشعريرة، فلم ينتظر لمعرفة بقية بيوت آل المهرجي، فقد وجد ضالته! وشكر الدليل ملتفتاً إلى الوراء، بينما كانت خطواته تتسارع إلى الإمام، حتى كاد يتعثر، وانطلق مسرعا تتبعه زوجته الحيرى، ووقف الرجل المكي مدهوشا من انفعال هذا الحاج الغريب، ولم يبرح مكانه، حتى طرق عبدالله باب المنزل طرقات متتالية مثيرة!!

جاء صوت من الداخل ينادي فزعا: من الطارق؟

فقال: أبو نمر بالباب، أليس هنا بيت أم عبد الله المهرجي!!

فصرخت الأم من الداخل: والله هذا صوت عبدالله... وأقبلت تجري..! ■